



ثنائية العنف والرقّة في القصيدة الثورية الجزائرية ديوان أطلس المعجزات لصالح الخريف القراري الجزائري أنموذجا

عبد اللطيف حني

قسم اللغة العربية وآدابها - كلية الآداب واللفات

- جامعة الشاذلي بن جديد - الطارف - الجزائر

البريد الإلكتروني : HENNI2006@GMAIL.COM

ملخص :

يسعى هذا المقال إلى دراسة شعرية القصيدة الثورية الجزائرية من خلال تتبع ثنائية العنف والرقّة التي لطالما لمسناها في متنها، متخذاً من ديوان أطلس المعجزات لصالح الخريف القراري الجزائري أنموذجا، الذي توجه فيه بلغة عنيفة وقوية ضد مستعمر كاشفا جرائمه ودسائسه للشعب الجزائري، كما مال بخطابه إلى الرقّة والسلاسة حين يتغزل بالجزائر، ويرسل أشواقه وحنينه لأهله وأرضه، ويكشف المقال شعرية وجمالية الجمع بين هذا التخالّف المعنوي والدلالي في ديوان الخريف في لغة فنية راقية.

the two-violence and tenderness In the Algerian revolutionary
poem

"Diwan of Atlas Almojizatte" for "Salehe Kherfi Ale-grari"
Algerian model

Abstract-

This contribution attempts to study poetry poem revolutionary Algeria by tracking the two-violence and tenderness that as long as we witnessed in the board, taking from the "Diwan of Atlas Almojizatte" for Salehe Kherfi

Ale-grari Algerian model, who went where the language of a violent and powerful against the colonial revealing his crimes and the stings of the Algerian people, as capital of his speech to tenderness and smoothness while flirting with Algeria, and sends longing for his family and his land, and the article reveals the poetic and aesthetic combine this allelo moral and semantic in "Diwan Kherfi" in the language of fine art.

بسط منهجي :

كشف الدراسات النقدية العديد من الجماليات الفنية للأدب الجزائري، وبينت تلازم ثنائية الثورة والوطن في موضوعاته، وعدّها الكثير منهم أحد سماته الثابتة لأنه يعبر عن أعظم ثورة شهدتها العالم، لذلك دأب المبدع الجزائري على التمسك بهذه الجدلية، خلال الثورة التحريرية وبعدها، فراح يتغنى بها وببطولاتها مدونا تاريخها، وراصدا أحداثها، موظفا لغة العنف الثورية التي طبعت موقفه من المستعمر ومن جرائمه ضد الشعب الجزائري الأعزل، وإلى جانب هذه اللغة نتلمس لغة الرقة والنشوة والتفاؤل من خلال تغنيّه بالجزائر أمّا ورفيقة وحبّية وزوجة وبشجاعة المجاهدين وبطولاتهم، وبالعلم الجزائري، ومبديا شوقه وحنينه لأحبته وأهله وهو في غربته.

تأسيسا على ما سبق تتنزل هذه المداخل لتغوص في عالم القصيدة الثورية الجزائرية متخذة من ديوان أطلس المعجزات للشاعر صالح الخريفي القراري الجزائري⁽¹⁾ أنموذجا، فقد أفضى في متن أطلسه همومه وآلامه ووجعه من جرائم المستعمر، فكانت لغته وإيقاعه يمتازان بالعنف والضراوة والرصا

1- الشاعر صالح الخريفي من مواليد 1932 بمدينة القارة بولاية غرداية، من أسرة تقديس العلم والعلماء، حيث حفظ القرآن الكريم سنة 1946، ثم تعلم في مدرسة الحياة الابتدائية، وبعدها أرسل إلى تونس لينهل من علوم جامع الزيتونة، والمدرسة الخلدونية سنة 1953، بعدها رحل الشاعر إلى القاهرة، فالتحق بجامعة فتحصل على شهادة الليسانس ثم الماجستير ثم الدكتوراه في الآداب، ناضل الشاعر لإسماع صوت الثورة للرأي العالمي، ثم عاد إلى الجزائر ليشترك في الثورة حتى الاستقلال، توفي الخريفي سنة 2001.

والمدفع، كما حمل الخريف أنوثة قصائده بلغة انسيابية رقيقة سلسلة حبه وعشقه للجزائر وطنا وإنسانا، وغازل الراية(العلم) بألوانها الخفاقة على سفوح الأطلس والأوراس، وبث شوقه وحنينه للحرية وللاستقلال ولأهله خلال غربته، وتظهر المداخلة كفاءة الشاعر في الجمع بين هذا التخالف المعنوي والدلالي في ديوانه بل على مستوى القصيدة الواحدة والبيت الواحد.

1- التماهي الثوري في ديوان أطلس المعجزات :

تعد الثورة التحريرية منطلق الشعر الجزائري الحديث، فقد أججت عواطف الشعراء فراحوا يسكبون حبر أقلامهم على الأوراق ليدونوا أحداثها ويصفوا عظمتها ويتغنوا ببطولة الشعب الجزائري الذي ضحى بأغلى ما يملك، فكان الإبداع الشعري الثوري والوطني، الذي جند الشعراء الجزائريون في ساحاته طاقاتهم التعبيرية، لتسجيل كل مناسبة أو حادثة تمر في قصيدة خاصة أو ضمن ثناياها بغض النظر عن المناسبة سواء أكانت دينية أم قومية، فقد كان همهم الوحيد مواساة هذا الوطن المكلوم بالجراح والآلام، والدفاع عن مقوماته وتأسيس معالم هويته الوطنية، والحفاظ على سماتها وأسسها أمام تيارات التغريب التي كان يمارسها المستعمر الغاشم، ورفع رايته عالية في المحافل الدولية والمؤتمرات القومية.

ومن بين الشعراء الجزائريين الصادحين بشعر ثوري صاحب أطوار ثورتنا التحريرية المباركة التي نحتفل بذكراها الخمسين شاعرنا صالح الخريف؛ من خلال العديد من دواوينه وخاصة أطلس المعجزات الذي هو محل دراستنا، فإذا تصفحنا أوراقه ورحنا نتلمس جسد قصائده ونحاورها ونحدثها إننا نلاحظ ظاهرة بارزة أل وهي الاحتقان الثوري الوطني المبثوث فيها، فهي حبل بالمعاني والدلالات التي توحى بصدق وانفعال الخريف، كما برز أن «هذا الاحتقان الثوري

في الجزائر فجر بطولة ساخرة لا مبالية فاقدة الإحساس بالآلام الجسدية»⁽¹⁾، كما جعل شاعرنا ملتصق بالثورة التحريرية «في سهولها وجبالها ومغاويرها وكهوفها، فالثورة فيه خافقة تائقة زاحفة متموجة، حيث اختلط الشعر بالدم ورائحة البارود، إذ لا يكتفي الشاعر بالتحويم العائم على الجبال أو بالصورة القائمة تلتقط من الجو وإنما يتبعها بأسمائها، ويلون الخارطة بالألوان البارزة، ويستوحي الأبعاد البطولية»⁽²⁾، ومن هذه الأسماء: أوراس، البيضاء، تبسة، القصبة، شوارع الجزائر العاصمة، فهذه «الأماكن من قرى ومدن وجبال في الشعر العرب تبث العواطف المرتبطة بحب الوطن، فتتهيج في المغترب الأشواق والحنين...وتندكي شعلة الغربة المحترقة والحنين الدائم لأرض لا تمنحي معالمها الجغرافية ولا تزول»⁽³⁾.

ولعل أهم ما جعل شاعرنا يعيش مأساة الجزائر بذاته وروحه هي حياة الغربة التي كان يعاني منها، فهذه الغربة صقلت تجربته الشعرية، وخاصة عندما تمتزج مع الأخبار المزعجة التي تصل إلى المشرق العربي عن الثورة التحريرية الكبرى، وعن جرائم ووحشية المستعمر في قتل الشعب الأعزل غدرا وتعمدا، وزج الشباب والمتظاهرين في السجون، فهذه العوامل أججت الروح الثورية في روح الخريف منذ صغره وكبرت معه كلما كبر وتبلورت في أفكاره، وشدته شدا إلى أرض البطولات إلى مسقط رأسه وذكرياته وصباه، إلى الأرض التي عاش فيها أجداده، الأرض التي عشقها صغيرا واكتوى بنارها كبيرا؛ أرض الجزائر الثائرة، فكان بذلك ديوانه "أطلس المعجزات" بمثابة المنبر الذي يرى منه الناس

1- صالح الخريفي، الشعر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط2، 1984، ص 233.

2- نفسه، ص 233 – 234.

3- سلمى خضراء الجيوشي، أبعاد الزمان المكان عند الشابي - دراسات عن الشابي - ، الدار العربية للكتاب، ط2، 1989، ص 214.

فيكون خطيبا ناصحا، مرشدا تلهمه الثورة التحريرية المباركة بالكلمات، وتمده بالأفكار الثائرة المدوية، فيلون بالدم قصائدهن فيرسلها من صخور الأطلس الشامخ الأشم مشيدا بالمجاهدين الأحرار.

2- العنف الثورة في ديوان أطلس المعجزات :

إن ديوان أطلس المعجزات هو أناة شاعر احترق حبا في جزائره، واكتوى بنار البعاد عنها، فألهمته ثورتها المباركة الكلمات فراح متفاعلا ومنفعلا مع أحداثها موظفا في ذلك مزيجا من الخطابات التي تكشف عن حالته وتدل على نفسيته، ومن أبرزها ظهورا خطاب العنف الذي نلاحظ لغته تطغى في القصائد التي خصصها الخريف في إظهار موقفه من الاستعمار وتتمثل في :

أ- وصف جرائم الاستعمار :

بين الخريف في ديوانه خطر الاستعمار ووصف بشاعة جرائمه مستعملا قوافي مدوية، ذات جرس قوي ينم عن سخطه وغضبه بلغة عنيفة شديدة تفرع الأذان، وتوقظ الإحساس وتنبيه الشعور وتشد الإدراك لهول جرائمه المرتكبة ضد أبناء الشعب الجزائري، فهذه الحالة الصارخة تملئها العاطفة الوطنية الساكنة في نفس الخريف «هذه النفس التي تتميز بالحربية المنطبعة في ديوانه أطلس المعجزات»⁽¹⁾.

ولعل لأول قصيدة تصادفنا في الديوان هي "مأساة تبسة" المدينة التي حولها المستعمر الفرنسي إلى أطلال مترامية، وحول أهلها الضعفاء إلى جثث خامدة

1- مقداد محمد، دراسة نفس حربية لأطلس المعجزات- ديوان شعر لصالح الخريف- مجلة الرواسي، باتنة، الجزائر، العدد العشر، السنة الثالثة، رمضان 1414هـ- جانفي فيفري 1994، ص 45.

متناثرة في المكان، وساق بعض شبابها إلى السجون، فالشاعر يصف بلغة ساخطة وغاضبة المأساة التي تجاوزت وحشية النازية وهمجية الفاشية فيقول حزينا :⁽¹⁾

رفعوك في ليل الكفاح منارا إذ غادروك أيا تبسة نارا
في كل قلب نابض قد أضرموا ها يستفز أوراها الأحرارا
ما انهد ركن فيك إلا والعرو به قد تصدع قلبها وانهارا
يوظف الخريف كلمات توحى بشراسة المستعمر وحقده على الجزائريين
مثل (نارا، أضرموا، انهد، انهارا) التي سطا بها على تبسة وما هي إلا مثال على
الكثير من الأماكن التي عاث فيها المستعمر قتلا وتنكيلا وتشريدا لأهلها،
ونتيجة ذلك فهو يتوعده برد الكيد والنيل منه، فالثورة كفيلة به بثائر مناشد
للحق استطاب الحرب وألف لظاها، وهذه الجرائم ستزيدنا عزما على أخذ
حريتنا، حيث فيقول :⁽²⁾

صرخات بنت من بناتك كالخريد دة هتك الباغي لها أستارا
زفرات قوم أبعدوا عن أرضهم ظلما فهاموا في القفار حيارا
تلك المآسي قد كفانا وقعها ليشيرها بين ضلوعنا إعصارا
إعصار حقد في الجوانح كامن إن ثاردك الشر والأشرا
لعل الخريف يرسم لنا هذه اللوحة المأساوية، مبينا كيف صب لمستعمر
حقده على الأبرياء موظفا في بيان تفاصيل الفاجعة لغة غاضبة عنيفة توجه بها
للمستعمر (إعصار، حقد، كامن، الشر، الأشرا) فهذه الألفاظ تعكس نفسية
شاعرنا الحاقدة على أعماله وجرائمه، وتندد بها وتستنكرها، فالخريف يؤكد أن
الثورة ولدت من هنا وثار الشعب لأن البطش قد تك به وحن أوان التحرر من

1- صالح الخريف، أطلس المعجزات- الديوان- ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،
1982، ط 2، ص 19.

2- نفسه، ص 21.

ربقة الذل والهوان، وبالمقابل يرى أن هذه الجرائم لا تزيد الشعب إلا صموداً وعزيمة وقوة وثورة على الباغي، فقد السهول مقابر من شدة القتل والإبادة فيقول : (1)

بل صيروا تلك السهول مقابر وأذروا الجبال الشامخات غباراً
الكل يخضع للحديد ولن ينال لديدكم من عزمنا معشاراً
ويخفف الخريف الألم على تبسة المكلمة الحزينة ويتوعد المستعمر برد الثأر
والنيل منه على جرائمه فيها، فلا التاريخ ولا العالم ولا الشعب يغفر عمله فيها
فيقول بنبرة حادة قوية شجاعة : (2)

صيرا تبسة إن شقيت بنار أوغاد بكأس الانتقام سكارى
سيزيح عنهم ظلمة الأسكار فجر الجزائر يبهز الأنظاراً
لا تحزني للوكر إن عصفت جبا برة به والسرب ريع فطاراً
وتشيع هذه اللغة التي تتعالى منها أصوات الحرب والنار في وصف مكائد
المستعمر التي يدبرها ضد الشعب الجزائري، فترك شاعرنا الكلمة للرصاص
والمدفع والبندقية فقولهم الفيصل في هذه المواقف التي تنفى كل الشعارات،
وتجيز كل الخطب والمقالات.

ويعرج شاعرنا على القصة (حي قديم بالجزائر العاصمة) مهد البطولة
والتضحية مظهرها المأساة التي حلت به فقد أحرق المستعمر الكثير من منازل
بحثاً عن الثوار باعتبارها قلعة حصينة لهم ومنها تنفذ العمليات الفدائية إبان
الثورة، فكانت هدفا للغارات الفرنسية الوحشية، فوقف الشاعر واصفاً للقصة
وقد تحولت إلى قبور للأحياء، بنبرة تعلوها حدة وغضب على ما حل من تنكيل
حيث يقول : (3)

1- نفسه، ص 21- 22.

2- نفسه، ص 22.

3- نفسه، ص 41.

فتلك القصبة المصلاة نارا فزادت نار ثورتنا اتقادا
فهل جبروتها أطفأ لهيبا وهل بلغوا بقسوتهم مرادا
إذا خانتك أسباب التراضي فلن تقوى على الأعدا عنادا
ألا إن الجزائريا فرنسا لكالعناء تكبر أن تصادا
لعل شاعرنا وظف ألفاظا وعبارات حادة مثل (نارا، المصلاة، اتقادا، لهيبا،
قسوتهم، عنادا، تصادا) وتوجه بها للمستعمر الذي لا يدخر بنعته بأشر النعوت
ويكشف عن جرائمه بأبخص الأوصاف، ويعنف الثورة التي استأصل عروقه من
الجزائر، وبثورة العنف كان لغة التعامل معه، وقد آتقن أبجدياتها شارعنا، فراح
يصوغ على أوتارها قصائده الكثيرة التي تصف جرائمه، ومنها ما حدث في شهر
ينار 1957 حث شنت الجزائر إضرابا عاما دام أسبوعا كاملا بمناسبة عرض
القضية الجزائرية على الأمم المتحدة لأول مرة، فقام المستعمر بشن حملات
اعتقال ودهم للبيوت والدور والمحلات بجنوده وذخيرته الحية دون رحمة أو شفقة،
يصور الخريف حال الجزائر وأعمال المستعمر، معبرا عن حالته النفسية إزاء
جرائمه فيقول : (1)

خبروني أبالجزائر أنس؟ أم طوى شعبها المكافح رمس
أنهج خيم السكون عليها وأناس بين المنازل خرس
سكنت لا سكون عجز وكانت كعباب الخضم تطفو وترسو
غير نار و متريات تدوي وذئاب سطت تجور وتقسو
بطرت فأنثت تعض وتعوي ولها في إبادة النفس أنس
ب- تحدي المستعمر :

يتعالى من أطلس المعجزات صوت الخريف المتحدي الثائر الشجاع المقدام،
ممتطيا الكلمات والجمال الصلبة القوية واللغة الثائرة التي لا تعرف للين طريقا
ولا للرقعة مسلكا، مخاطبا المستعمر فيقول :⁽¹⁾

فلا تترقبوا منا سلاما دعونا صخرة ودعوه وعلا

يا نسر الجبال أدر رحاها وأجج نارها أو تستقلا

فالحرب عند الخريف مسألة موروثية لا يهابها الشعب الجزائري لأنه سليل
ابن الوليد، وما كان لهؤلاء الأحفاد أن يخافوا الوغى، لأنهم أصحاب مبادئ لا
تغريهم الدنيا ولا تخدعهم الوعود الكاذبة، فهم لا يريدون إلا الحرية أو
الاستشهاد في سبيل وطنهم، فالشاعر يعرف المستعمر بحقيقة الشعب ، فيقول :
(2)

فنحن بنوا المعامع من قدم سلي خواضها ابن الوليد

ولسنا في الوغى جددا فتثني عزائمنا القذائف كالرعود

ولا عشاق دينار فتلوي أعنتنا بوارق من وعود

ولعل الخريف في تحديه للمستعمر يستكين إلى صور ولغة صارخة وغاضبة
لكنها تقليدية، حيث «يصف فيها معارك الحرب التحريرية من خلال صور لا
تمت إلى الحروب المعاصرة بأية صلة إنها صور مستقاة من أجواء القصائد
العربية القديمة»⁽³⁾ التي يكثر فيها ذكر السيوف والصهوات وتصوير القتلى
وشجاعة الفارس وهو يحارب الأعداء، كل هذه الصور القديمة لا تفارق الخريف
في نسج قصائده الثورية، من ذلك يقول :⁽⁴⁾

1- نفسه، ص 30.

2- نفسه، ص 67.

3- محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1985،
ص 435.

4- صالح الخريف، أطلس المعجزات- الديوان- ، ص 29.

تغاضينا عن السوءات حيناً وقلنا والنهى يقضى لعلا
ولما لم يفد حلم وصبر ركبنا في طريق المجد جهلا
وثرنا صارخين بملء فينا رويديك يا فرنسا ثم مهلا
فمن بنزالنا غرته نفس تركنا أمه تبكيه ثكلى
إذا خضنا الوغى أبنا بنصر وغادرنا الثرى جرحا وقتلى
فالشاعر يستعين باللغة العنيفة في التعبيرات والألفاظ التي لا تعرف رحمة
ولا هودة تتحدى المستعمر وتهدد كيانه وتتوعده بان تزيحه، فالثورة عند
الخرى تتأجج وتعلو صرخاتها وأصواتها المرتفعة إلى حد أقصى، وهذا ما يؤكد
خطابه لأحد الجنرالات الفرنسيين فيقول :⁽¹⁾

وهالته الجزائر إذ رآها تشرد قومه سبيا وقتلا
وتلك سيوفنا صدت فثرنا نروم لها على الأعناق صقلا
كما يوجه شاعرنا تحديه للمستعمر من خلال توجيه قصيدة " صرخة
الأحرار في وجه غي موليه" لرئيس الوزارة الفرنسية أثناء زيارته للجزائر، وتشدقه
بالمبادئ الاشتراكية ودعوة البناء والتعمير، فيجند شاعرنا خطابه الحاد
العاكس لكرهه للحكومة الفرنسية ومن سار في ركبها، واستهانته بكل ما
تصرح به فهو كذب وبهتان فقد خبر الشعب فرنسا وحيلها وخداعها، فيقول :
(2)

أي(مولي) استقل وتنحى عنا فإن السيف أصدق منك قولاً
لا نجنح لتزويق الأماني زمان القول يا مولي تولى
ألا إن الجزائر أنجبنا لضى ناربه الأعداء تصلى
ألا إن العروبة علمتنا و علمتنا الآبا ألا ندلاً
ولما لم يفد حلم و صبر ركبنا في الطريق المجد جهلا

1- نفسه، ص 25.

2- نفسه، ص 26، 27، 30 .

فمن بنزلنا غرته نفس تركنا أمه تبكيه ثكلى
إذا خضنا الوغى أبنا بنصر و غادرنا الثرى جرحى وقتلى
نلاحظ أن الخريف صعد في لغته حيث نقل القصيدة إلى الأجواء الجاهلية
التي تغالي في وصف الحروب وتعلي من شأنها وتبدي ولاءها لقبيلتها، وتستلذ
الدفاع عنها والاستماتة لأجلها، وكذلك يفعل الجزائري من أجل وطنه، يثور
بقوة وعنف ويسترخص في سبيل نيل الحرية أو الشهادة كل غال، وهذا ما دأب
على تأكيده شاعرنا في كل قصائده متفاعلا مع سياقها ومنفعلا لرصد المعاني
والدلالات المعبرة عن تجربته الشعرية، حيث يقول : ⁽¹⁾

فجئنا والنيران في لهب وللرصاص على الهامات تغريد
وللمنية في ساح النزال رحى تديرها فتية عرب صناديد
خاضوا المعامع في شوق وفي لهف كأن قلبهمو بالموت معمود
فهذه المواقف في ساحات الوغى تبين شجاعة أبناء شعب الجزائر وهم
يتسلقون الجبال لنيل حريتهم ولا يفارقونها أبدا حتى ينالوا سيادتهم، فالخريف
بيطن أبياته بألفاظ عنيفة مستوحاة من الحرب وساحات الوغى.

3- رقة الثورة في أطلس المعجزات :

إلى جانب اللغة الثورية الحادة والعنيفة التي وظفها الخريف في أطلسه
لمخاطبة المستعمر وكشف جرائمه، نجد امتطى لغة أخرى وقوض خطابا
مخالفا ومناقضا للأول، إلا وهو الرقة والسلاسة واللين، تعلوه في الكثير من
المواضع لمسة رومانسية تظهر الجانب الآخر من شخصية الخريف، فقد رأينا فيه
الشخص المحارب والمناهض الشرس أمام أعمال وجرائم الاستعمار ضد شعبه،
وسنرى منه الشخص الحالم الهادئ المتطلع لمستقبل الجزائر المتحررة والجميلة
التي تنعم بالأمن والسلام والطمأنينة، وقد تجلت هذه السمة في :

أ- التغني بالجزائر :

1- نفسه، ص 53.

عندما نطالع شعر الخريفي نجده يهيم بحب الجزائر فهو « غارق في حب وطنه إلى أعماق أعماقه وأخمص قدميه لأنه معذب بهواه هائم فيه ولذا عاش مؤرقا بوطنه متشوقا إليه لا يهدأ من هجمة الحنين إلا عاوده هذا الحب مما جعل حب الوطن تضخم كلما كبرت المأساة وكلما عاوده القلق وتملكه الخوف»⁽¹⁾، حيث يتغنى بنوفمبر الأغبر بجمالية ممتعة وبيرومانسية متناهية، كاشفا حبه للجزائر وثورتها المباركة فيقول :⁽²⁾

يا روضة الشهداء من ارض الفدا يا أسد معقلها ولا أسد الشرى
يا روضة الشهداء لولا كعبة هي قبلتي سميتها (أم القرى)
يا صيحة الأحرار من أرض الجزا ثر لم زل تغزو المدائن والقرى
لولا اختتام الوحي بالهادي ولو لا روضة فيها أقام معطرا
أقسمت أن الأطلس الدامي يخبئ للبرية هاديا ومبشرا

فالخريفي يتسامى بحب الجزائر حيث يصفها بروضة الشهداء ومعقل الأبطال، فيفيض عليها بأوصاف قدسية مما يجعل لغته لغة حاملة عميقة الأغوار، وغايته بث الحماس، وإلهاب المفاخر بأرض الجزائر لأنها ثغر من ثغور العروبة والإسلام.

وقد اتخذ الخريفي من نفسه المتأججة منطلقا لرؤيته الشعرية فجاء شعره وجدانيا انفعاليا مما أضاف اللثام عن رؤيته الحزينة ونفسه المتألمة وقلبه المحطم، فهو يعيش حياة الخوف لأنه يصبو للحرية، فيقول :⁽³⁾

أنت أنشودة الصباح إذا افتر وفي غفوة الدجى أنت نجوى
خطوة للكفاح وللثأر تهادت في ساحت الحرب نشوى

1- محمد زغينة، شعر السجون والمعتقلات في الجزائر (1954 – 1962)، رسالة ماجستير في الآداب، مخطوط، معهد اللغة العربية وآدابها، جامعة باتنة، 1989، ص 69.

2- صالح الخريفي، أطلس المعجزات- الديوان- ، ص 180.

3- نفسه، ص 222.

فهذا التغني بالجزائر يعود إلى أن الشاعر لا يرى في الجزائر إلا حريته وحرية شعبه، ولا يحس بالحرية إلا إذا كان في أرض الجزائر، حث يتغنى بعودته من غربته إلى الجزائر الحرة ب خطاب رومانسي في قصيدة " صرخة جزائري" مصورا لنا نفسية جديدة وروحا أخرى تمثلها الخريف في حديثه عن الجزائر، حيث يقول : (1)

سنة الكون أن أكون طليقا

أتخطى في الغرب دربا سحيقا

ومن الشرق أستمد شروقا

لبلاد أقسمت أن تفيقا

إنها تربة تسمى الجزائر

أخرجتها للكون قبضة تائر

ويتسامى الخريف متغنيا بالجزائر وبمكانتها الأصيلة الضاربة في التاريخ، العاكسة لحضارتها العربية والإسلامية، فقد عرفت بين الأمم بالعزة والكرامة فعليها أن تثور لتثبت وتؤكد هذه الحقيقة، يقول : (2)

وطني عهدتك في المروءة والكرامة حيث يعيش ذكراك الجلاس

وعهدت فيك يشمخ أنفه نحو السماك وللعزيز شماس

ب- التغني بالرأية :

فإذا كان الخريف قد تغنى بالجزائر وقدها، فهو لا يملك إلا أن يعتز برايتها، التي ضحى لأجلها الآلاف من الشهداء، إنها راية العز والسيادة باخضارها واحمرارها وبنجمتها الخماسية، فالخرف يشيد بالعلم الجزائري ويؤمن به كرمز للجزائر وحريتها، ويضع الثقة في الثورة منذ انتصاراتها الأولى، فوصفه في قصيدة "عهد جديد" للعلم التي نظمها بمناسبة إعلان الحكومة

1- نفسه، ص 101.

2- نفسه، ص 12- 13.

المؤقتة للجمهورية الجزائرية في سنة 1958، والتي يشيد فيها بهذه الرؤية التي ظلت خفاقة، فالشاعر يكثر من التغني بالرؤية إلى حد أنه يرى أن كل جزائري لا تظلمه إلا هذا العلم المقدس الذي يجب أن نفتخر به وندافع عنه ونمكن له، متوسلا بلغة سلسلة طيبة تضي على القصيدة جمالا ورقة، حيث يقول : ⁽¹⁾

يا أخي ظللتك أقدس رؤية
وبها سرت نحو أشرف غايه
إنها دولة وليست حمايه
إنها النصر والعلا في النهايه
إنها يا أخي برغم الجبابر
دولة من صميم شعب الجزائر

فالعلم بتاريخه الطويل يحتل مكانة في نفوس الشعب، فهو صورة مصغرة للوطن، وعنوان الثورة ولواؤها، وجدير «بأن يحظى من الشعر بوقفات تقديس وإجلال ولفتات افتتاح وهيام فتخفق في خفقاته أوزانه وقوافيه، ولم يقل الشعر عن السلاح وفاء للعلم الجزائري فطالما حياه بطرف مطرق وقلب خاشع» ⁽²⁾ دليل على مكانته لذا وصف العلم بريشته الشعرية وبالألوان التي «يستمدّها من الطبيعة الجزائرية، وأخلاق أبناء الجزائر، ومواقفهم البطولية، فالعلم فلذة من أكبادهم ودفقة من دمائهم وقطعة من وطنهم الأخضر ونسيج من عروقهم النابضة، فهو أهل لأن يفدى» ⁽³⁾، حيث يصفه الخريف بلغة تنساب على القلوب الحزينة فتحبيها، وعلى الجروح فتشفيها فيقول : ⁽⁴⁾

ظللتنا بنجمة وهلال

1- نفسه، ص 109 – 110.

2- صالح الخريف، الشعر الجزائري الحديث، ص 284.

3- صالح الخريف، أطلس المعجزات- الديوان- ، ص 285.

4- نفسه، ص 110.

وسلام على ممر الليالي
واخضرار على الربى والتلال
ودم مفرد القداسة غال

لقد سكن هذا العلم أفئدة الشعب، فأحبه واحترموه، لذلك لا يزال صاعدا
إلى العلا ولا يزال أبناء الشعب يبائعونه الواحد تلو الآخر فهو علم الثوار وأنات
الجزائر وصرخات اليتامى : (1)

عالم ثائر إلى المجد صاعد
فتلقته أعين على السوا وأبعاد
أقرباء بكف حر مساعد
باعوه بكف حر مساعد
تلك أنات يتم وحرائر
فجرت بالحنان أقدس الضمائر

ج- الشوق والحنين :

إن الخريف شاعر ثوري ووطني يحترق شوقا إلى الجزائر المحترقة بالآلام
ونيران الأعداء، ولكم تهزته تلك المناسبات الغالية حين يجد نفسه غريبا بعيدا
عن وطنه المحترق بلا أم تواسيه، ولا بيت يأويه، ولا أخ يمسح همومه، هنا تتجلى
اللغة الرقيقة الحبلية بالرومانسية المغرقة في جو من المشاعر الفياضة التي
نتلمس وقعها ونسمع إيقاعها من خلال حديث الخريف عن والدته التي تركها في
أرض الجزائر ولا يدري ما حل بها، وكيف نكل بها المستعمر، فالخريف شغوف
لرؤيتها يتطلع إلى كل خبر عنها، فقد حرم من مناداتها والجلوس إليها، فيرسل
الزفرات الحارة حين يرى الأمهات مع أبنائهن فيذكره المشهد فيقول : (2)
كم ذكرتني أمهات في ثياب زاهية

1- نفسه، ص 110 - 111.

2- نفسه، ص 97.

أيامك السوداء بين الذئاب الضارية
والعيد خضب منك كفا بالدماء القانية
وتقلد الخدان لؤلؤ مقللة لك باكية
والكف ساند خافقا دقاته متتالية

تترأى لنا الرقة المبتوثة في المقطوعة والتي تظهر الجانب الآخر لشخصية
الخرife، حيث تشع من روحه معاني ودلالات تشعرنا بالشوق والحنين إلى ما يشعر
به وخاص الأم التي نشاق إليها وهي قريبة منا، فالشاعر يتخبط بين ألم البعاد
وألم الحيرة عليها في أرض الجزائر وهي تكابد مع شعبه قهر واضطهاد المستعمر.
لعل اللوحة التي رسمها الشاعر لأمه هي لوحة مأساوية لما حل به في العيد، ولما
يتصوره في الجزائر، حيث يتخيل والدته دافنة رأسها بين كفيها والدمع يترقق
من مقلتيها وحيدة غريبة عنه لا يستطيع مواساتها ولا هي كذلك فيقول :
(1) أمي يهنئ كل نجل أمه ويعانق

وأنا نصيبي منك يا أمي الخبر الطارق
أحيا هنا وأنا لم أراك الوضيئ مفارق
لكنني بالرغم منه باللقاء أنا واثق
أماه هذا المعتدي هذا الغراب الناعق
أنا والجميع وأنت يا أمي عليه صواعق

ويشتد الشوق بالخرife فيتذكر كيف يمضي العيد مع والدته، حيث تمر
صورتها أمام عينيه وهي تحضر لذلك اليوم بدء بالإبكار وتزيين البيت للزائرين
فيتفاعل حيننا مع المشهد ويغوص في عالم الذكرى الجميلة الحاملة فيقول: (2)
من يا ترى ينسى فؤادي بقضة باكره في فجر يوم العيد والأعياد ذكرى عابره
لتزيني البيت الجميل لزائر أو زائره والبشر رسم في محياك الجميل بشائره

1- نفسه، ص 95 .

2- نفسه، ص 96 .

فهذه من ثورية ووطنية الخريف وشعوره بالحنين والشوق للجزائر وهو في غربته لأنه «اغتراب لا يعلم له انتهاء مما يجعل الأنفوس معلقة بين اليأس والطمع ولكن المشاعر رغم ثبوتها بين الحنايا فقد طوتها الضلوع وهي تتمزق وتنكرت لها وهي تضرب بجذوتها بأعماقها وتسامت عليها وانصرفت عن ذكرها»⁽¹⁾ فتجنح العاطفة الثورية المفعمة بحنين الوطن لتصبح شعورا يضمه الشاعر في نفسه، شوقا وحرقة بملاقاة الأهل والأصحاب، فيكون نكران الذات عنده عبارة عن التضحية بالعواطف الشخصية والتسامي بالمشاعر الذاتية، ونلمح ذلك في قصيدة " نداء الضمير" التي أظهر فيها هذه العاطفة المعبأة بالحنين لتربة الجزائر ففي القصيدة «جمع بين الحب والثورة...تصور حياة حبيبين نعما بالحب وفرقت بينهما الحرب، فهاهي الحبيبة تتلهف على حبيبها وتعرب له عن حبها ووفائها وأملها باللقاء به يوم النصر القريب»⁽²⁾ فشعور الخريف بالعودة للوطن والتلاقي مع الحبيبة جعل أفكاره تنثال انشيا لا لتجاوز المحنة قهرا وذلا، حيث يقول :⁽³⁾

يا حبيبي ذكريات الأمس لم تبرح خيالي
كيف تغفو مقلتي عن ذكرها عبر الليالي
لا تلمني إن ترامت بي أمواج البعاد
لا تلمني لم يزل يخفق للحب فؤادي
غير أن القلب هزته نداءات شجية
صعدتها في دجى الليل قلوب عربية

- 1- محمد ناصر، الأصالة في شعر ثورة نوفمبر، مجلة الأصالة، السنة العاشرة، العدد 89 – 90، جانفي – فيفيري، 1981، ص 123.
- 2- الوناس شعباني، تطور الشعر الجزائري الحديث منذ سنة 1945 حتى سنة 1980، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص 114.
- 3- صالح الخريف، أطلس المعجزات- الديوان- ، ص 193 .

وجفون مسها الضيم فغصت بالدموع
فاستطارت شعلة الحب لهيبا في ضلوعي
وتراءت لي وراء الصوت أعلام البشائر
فوهبت الحب قربانا وبايعت الجزائر
يبدو الخريف متشبها بالوطن مخلصا للثورة التحريرية الكبرى يغزلها
بشتى الأوصاف والنوعت والأسماء قاصدا حبيبته الجزائر فتسيل قصائده في
حرارة وحرقة تنم عن رقة إحساسه وجميل نفسه ورومانسية روحه: (1)
يا حبيبي لم أحن عهدي ولا خنت هوايا
غير أن الحب أمسى ثورة بين الحنايا
لك حبي في ذرى الأطلس في تلك الروابي
فهناك الأفق الرحب لأحلام الشباب
يبدو أن هذا البوح العاطفي الشجي البعيد الأغوار يعمق التجربة الشعرية
للمشاعر ويجعل هذه العواطف تنساح انسياحا، ولا تقف أمامها الحدود ولا
القيود، وهذا يخفف من آلام الشاعر ويبعث الأمل: (2)
يا حبيبي كم فرشنا الربع وردا وزهورا
كم بنينا من هوانا لأمانينا قصورا
لك حبي يوم تعلو بسمه النصر ثرانا
ويذيب الليل والآلام فجر من دمانا
سوف ألقاك مع النصر وأفراح البشائر
سوف نبني عشنا في ظل تحرير الجزائر
د- الإشادة بالمجاهدين :

1- نفسه، ص 194 .

2- نفسه، ص 195 .

إن الشخصية الثورية التي عرف بها الخريفي تجعله يتغنى بالمجاهدين والشهداء في أطلسه، «مشيدا بأعمالهم وشجاعتهم في كل ربوع وطنه، يحثهم على الجهاد صراحة، ويشد من أزهرهم ويثمن أعمالهم ويبارك انتصاراتهم وصف بسالتهم ويذيع انجازاتهم»⁽¹⁾ بلغة لا تخلو من الرقة والسلاسة فالمجاهدون يصنعون التاريخ الطاهر ويرسمون طريق الحرية، بعز وكرامه، لذا نجده يصفهم براصنة وهدوء فيقول :⁽²⁾

يا أيها الزاحفون زحف المنايا في ذرى الأطلس الأشم المصابر
يا نسور الجبال حلق منكم رابض في الثرى وحلق كاسر
أين سباقكم في المعالي من باق التسليح المتطائر
هذه الصيحات الجهادية تبعث العواطف المرتبطة بالثورة، والوطن والجهاد وتشجع المجاهد في ساحات الوغى «بخوض المعارك وهو مستعد لها، يحمل كل الصفات التي تؤهله لها، وتمكنه من النصر في الأخير، من شجاعة وابتسالة وتحد للموت ونفور من الذل»⁽³⁾ لينافح عن بلاده، إنها توجيهات القائد :⁽⁴⁾

غاض نبع الحياة منكم وارد يستقي الردى غير صادر
أنتم المجد والخلود وأنتم مهرجان انطلاقنا والمنابر
يرى الخريفي أن تربة الجزائر تطهرت بدماء الشهداء، وتعطرت وارتوت بها، فأضحت روضة لهم، ومعقلا للأسود المجاهدين الذين لم يدخروا جهدا لتحريرها، فالخريفي آمن بقضيته وتمكن حب الجزائر منه، فهو ثوري ووطني

1- أنيسة درار بركات، أدب النضال في الجزائر من سنة 1945 حتى الاستقلال، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984، ص 102 .

2- نفسه، ص 237- 238 .

3- يحي الشيخ صالح، شعر الثورة عند مفدي زكرياء -دراسة فنية تحليلية- ، دار البعث للطباعة والنشر، قسنطينة، الجزائر، ط1، 1987، ص 121 .

4- صالح الخريفي، أطلس المعجزات- الديوان- ، ص 238 .

للنخاع، ويركب اللغة القاسية حيناً والرقيقة الهامسة حيناً آخر، حيث يقول :
(1)

بسمه النصر تلك في يوم عيد أم هي الدمعة احتفت بالشهيد
خليا دمعة الشهيد تروي مقلتي خليه يذكي صمودي
لا تقولاً أين ابتسام الأمانى بسمه البشر ضاق عنها وجودي
أي عيد بوقف إطلاق نار ولهم في دمانا ألف عيد
خليا آهة المعذب تحدو ثورتي لانطلاقها من جديد

يبدو أن شاعرنا اعتمد في المقطوعة على بعض الكلمات التي سعى إلى تكرارها وهي ذات دلالات راقية وسامية تعبر عن الناحية الجمالية والمقدسة للثورة وهي : (بسمه، ابتسام، الشهيد، خليا، عيد، دمعة)، كما تعكس حرص الخريف على الارتقاء بالشهداء وبقيمة المجاهد الجزائري وعمله.

خاتمة

وبعد فقد كانت هذه الدراسة محاولة لسبر أغوار عالم القصيدة الثورية الجزائرية في ديوان أطلس المعجزات لصالح الخريف القراري الجزائري والكشف عن ثنائية العنف والرقّة التي طبعت لغة ومعاني ودلالات قصائده، فشكّلت صورة جمالية تلونت بها نصوصه، وكشفت عن شخصية الخريف التي تتميز بالقوة والعنف والحزم حيناً، والرقّة والسلاسة والرومانسية المطلقة حيناً آخر في عالم ثوري يعج بلغة الحديد والنار، كما استطاع الخريف إنتاج بنية شعرية نبعت من صميم التجربة الشعرية الثورية التي عاش أيامها واكتوى بنارها وآلامها وتلذذ بنشوتها عند الاستقلال.

ومن ثم فقد جاءت تلك النصوص الثورية وفقاً للرؤية النفسية والفنية للخريف، حيث رصد في أطلسه محطات الثورة الأليمة وعبر عما قاساه الشعب الجزائر من ذل هوان، كما كشف فيه عن عنف الثورة التحريرية التي عصفت

بالمستعمر فسجل أطوارها ومحطاتها، وإلى جانب ذلك أشاد بالجزائر وبجمالها
وخاطب أنوثتها واشتاق للحديث إليها من خلال مشاعره النبيلة، فكان رومانسيا
إلى أبعد الحدود، فقد جمع في أطلس المعجزات بين هذا وذاك في جمالية فنية
مطلقة .